ثمرة ملاحة العرب

دراسة في تاريخ أدب البحار العربي

أ.آى خه شيو (*)

ملخص:

إن الشعب العربي له تاريخ عريق، ومنذ ظهور صناعة الملاحة في القرن العاشر احتلت الصناعات المرتبطة بها مكانة مهمة في العالم، وبلغت صناعة الملاحة العربية وأدب البحار العربي ذروتهما فيما بين القرن الثالث عشر والخامس عشر. وعلى الرغم من أن الإمبراطورية العثمانية لم تسمح بالحضارة العربية في نهوضها وانتعاشها، ولكن مع ظهور الثقافة البحرية المتجددة بعد استقلالها في العصر الحديث، اجتذب البحث في أدب البحار انتباه العالم بشكل متزايد. ويتخلل أدب البحار الطابع المستقل للروح البحرية، حيث يدرس العلماء المعاصرون أدب البحار كظاهرة أدبية لها أهمية تاريخية بعيدة المدى وقيمة أكاديمية مهمة لدراسة التاريخ الأدبي. ويحتل أدب البحار العربي مكانةً مهمةً في أدب البحار العالمي، ولذلك فإن هذا البحث يجمع بين تطور الثقافة البحرية عامة وتطورها في الأدب العربي خاصة، ويجمع بين تاريخ تطور الملاحة العربي وتاريخ التبادلات العالمية وظروف التطور الثقافي للمجتمعات، ويجعل الشعر والنثر والروايات كأغراض بحثية رئيسية ليبحث في القيمة الأدبية والوظيفة السردية للبحار كفضاء وصورة سردية، وليتم بناء عملية التطوير وحالة البحث

* – آى خه شيو، AI Hexu، مدرس بقسم اللغة العربية، كلية اللغات الآفروآسيوية، جامعة الدراسات الأجنبية بقوانغ دونغ(GDUFS)، حاصل على درجة الماجستير. وتخصصه الدقيق: اللغة العربية، ودراسات الشرق الأوسط.

في أدب البحار العربي بشكل منهجي ويُقدم مسارات مختلفة وتغييرات ديناميكية في تطور أدب البحار العربي، بهدف توسيع مساحة البحث وخاصة في أدب البحار العالمي.

الكلمات المفتاحية: الأدب العربي، أدب البحار، الأدب الملاحي.

Abstract:

The Arab people have a long history, and since the emergence of the navigation industry in the tenth century, the industries associated with it have occupied an important position in the world. The arabic navigation industry and arabian sea literature reached their peak between the thirteenth and fifteenth centuries. Although the Ottoman Empire did not allow arab civilization to rise and revive, but with the emergence of a renewed marine culture after its independence in the modern era, research in sea literature has increasingly attracted the attention of the world. Sea literature is permeated with the independent character of the marine spirit, as contemporary scholars study sea literature as a literary phenomenon of far-reaching historical significance and important academic value for the study of literary history. Arabic sea literature occupies an important place in the world sea literature, and therefore this research combines the development of marine culture and its development in arabic literature, and combines the history of the development of arab navigation, the history of global exchanges and the conditions of cultural development of societies, and makes poetry, prose and novels as main research purposes to examine the literary value and the narrative function of the seas as a narrative space and image, so that the development process and the state of research in the arabic sea literature are systematically built and present different paths and dynamic changes in the development of arabic sea literature, with the aim of expanding the research space, especially in world sea literature.

Key Words : arabic literature. sea literature. marine literature

أولًا: ظهور الحضارة البحرية وأدب البحار

إن البشر حيوانات برية، فتعتمد الحضارة البشرية حتما أكثر على الظروف الأرضية؛ لذلك فإن الحضارات الأربع القديمة كانت جميعها حضارات زراعية نشأت من الأنهار. والحضارة البحرية في تاريخ البشرية هي ثقافة اجتماعية تتقدم على التنمية البشرية، وشرطها

الأساسي هو أن تكون متقدمةً على تطور المجتمع البشري والثقافة البحرية المتراكمة سابقًا. واليونان القديمة باعتبارها الدولة الأكثر تمثيلا للحضارة البحرية في العالم كانت قد أنجبت الحضارة البحرية تحت تأثير الموقع الجغرافي البحري والبري الخاص والمناخ البحري المتميز، وامتد تأثيرها إلى أكثر من نصف أوروبا وألهم المستعمرين والمستكشفين من المملكة المتحدة وإسبانيا وإيطاليا وغيرها من الدول الأوروبية الأخرى، وأدى ذلك إلى ظهور عصر البحار.

كان اكتشاف كريستوفر كولومبوس للعالم الجديد في عام ١٤٩٢م أهم نشاط بحري في القرن الخامس عشر حيث فتح الملاحون الأوروبيون الغربيون طرقًا بحريةً جديدةً، مما يمثل "بداية العالم" و"بداية عملية العولمة"، وبالتالي فتح مقدمة عصر البحار باعتباره العصر العالمي المترابط عبر البحار، وقدم المواد الغنية مثل مذكرات السفر والمغامرات واليوميات وغيرها من المواد النصية لأدب البحار المستقبلي، وأيضًا أنجب الأدب في العصر الملاحي، و"أدب البحار" و"الأدب في العصر الملاحي" هنا موجهان إلى الغرب، ولكن المجهول أن الجزيرة العربية قد بدأت بالفعل عصر الملاحة قبل ذلك، وأصبح أدبها البحري مزدهرًا، الأمر الذي دفع إلى الوصول المبكر لعصر الملاحة الأوروبية، كما قدم الكثير من الأدب الشعبي لنهوض الأدب البحري الأوروبي.

العرب ينتمون إلى الساميين – شعب قديم في غرب آسيا وله تاريخ لا يقل عن خمسة آلاف سنة. ووفقًا للتسلسل الزمني للتوزيع الجغرافي للنقوش الثمودية، قام العرب القدماء بأنشطة التجارة البحرية في البحر الأحمر على الأقل في القرن الخامس قبل الميلاد[1]. على الرغم من أن الحضارة العربية والحضارة الصينية تنتمي إلى الحضارة البرية، إلا أن الأولى تنتمي إلى الحضارة الصحراوية، والتي تسمى أيضًا بالحضارة البدوية، بينما تنتمي الثانية إلى الحضارة الزراعية. وتتوزع الدول العربية بشكل رئيسي في غرب آسيا وشمال إفريقيا جغرافيًّا، متاخمةً مع الخليج العربي والمحيط الهندي والبحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي. وعلى الرغم من أن البيئة التي نشأت الحضارة العربية تسودها

الصحارى، إلا أن العرب لم يتوقفوا عن التقدم في مجال الملاحة، وشبه الجزيرة العربية محاطة بالبحر من ثلاث جهات، وكان العرب الجنوب هم أول من عبر البحر الأحمر إلى شمال إفريقيا عن طريق القوارب حيث أنشأوا محطات بريدية ونقاط تجارية هناك، حتى أن هناك العديد من الآثار القديمة للعرب في صقلية، ثم بدأوا أيضًا تبادلًا تجاريًا متكررًا مع الهند وفارس. امتدت آثار الأقدام البحرية للعرب شرقًا إلى الساحل الشرقي للصين، وغربًا إلى الساحل الجنوبي لأوروبا وحتى أيسلندا. في الواقع، كان العرب يعرفون عن شبه جزيرة جنوب شرق آسيا وشبه الجزيرة الكورية قبل الأوروبيين بقرون. ومن خلال التجارة البحرية المستمرة تمكن العرب من نشر الإسلام والعربية والثقافة العربية والإنجازات العلمية إلى العالم الخارجي.

ثانياً: تعريف أدب البحار

لقد ظل البحر نقطة جذب وإلهام للعديد من الكتّاب. وعمومًا تحوَّلت صورة البحر مع المتن الإبداعي والفني، فبمعنى واسع، إذا كان الأدب المتعلق بالبحر هو أدب البحار، فهناك عدد غير قليل من الآداب الأوروبية التي يمكن تسميتها بأدب البحار، ويمكن أيضًا تسمية العديد من الآداب الشرقية بأدب البحار. ولكن بالمعنى الضيق، إذا كان البحر المذكور في النص هو زخرفة يمكن الاستغناء عنها، أو صورة غامضة، أو مجرد خلفية يمكن استبدالها بالبر، وهو ما لا يكفي أن نطلق عليه أدب البحار بالمعنى الحقيقي. ونحن بحاجة أيضًا إلى استكشاف ما هو أدب البحار بالضبط.

ومن منظور الفضاء السردي الأدبي، فمن الواضح أن البحر هو نظير البر، فيمكن للمثل الصيني "البحار أصبحت حقولا للتوت للدلالة على تقلبات الزمان" أن يفسر بشكل أفضل علاقة الوحدة الجدلية بين "البحر" و"الأرض". وأدت محدودية فضاء المعيشة البشرية إلى اختلاف الاهتمام بين أدب البحار والأدب البري. وإذا كان من الممكن إنشاء أدب البحار من منظور جغرافي، فهل يمكن إنشاء أدبيات الجبال العالية، وأدبيات الأحواض، وما إلى

ذلك، أو يمكن أيضًا تضمينه في النوع الافتراضي "للأدب الجغرافي"؟ من الواضح أن "البحر" هنا لا يكفي لدعم هذا النوع من الأدب باعتباره اعتبارًا جغرافيًا بحتًا.

ومن منظور التصنيف الأدبي، فإن أدب البحار وحده ليس مقنعًا كنوع أدبي. شكك الناقد الأمريكي رينه فيلك في وجود أنواع أدبية مثل "الأدب السياسي"، و"أدب البحارة" و"أدب البحار" في كتابه "نظرية الأدب"، ويعتقد أن طريقة التصنيف البسيطة هذه تنتمي إلى طريقة تصنيف علم الاجتماع[٢]. لذلك، فإن ما إذا كان أدب البحار لديه الشروط اللازمة لنوع جديد من الأدب أمر يستحق الاستكشاف. ومن منظور الأدب النوعي[٢]، على الرغم من أن أدب البحار له خصائص واضحة معينة، إلا أن متلقيه ليسوا ثابتين نسبيًا، ولكنه مرن وعالمي. ومن وجهة النظر هذه، من الواضح أن أدب البحار يختلف عن أدب النوع، ولا يكفي أن يكون فئة فرعية من الأدب النوعي وحده، ويبدو أنه من الأنسب اعتباره أدبًا موضوعيًا.

وعلى الرغم من صعوبة تحديد "أدب البحار"، لكن الباحث الصيني "دوان بو" أعطى تعريفًا تفسيريًا أفضل لـ"أدب البحار": "يمكن للأدب البحري بالمعنى الواسع أن يشير إلى الوثائق أو المواد المتعلقة بالبحر التي يتم تسجيلها وتمريرها في شكل مكتوب أو شفوي؛ وتشير الأدبيات البحرية بالمعنى الضيق إلى الأعمال الأدبية التي تأخذ البحار أو التجارب البحرية باعتبارها موضوعًا للكتابة وتهدف إلى إبراز علاقة القيمة والدلالة الجمالية بين الناس والبحار، بما في ذلك الشعر البحري والمسرحية البحرية والروايات البحرية والأساطير البحرية، والأغاني البحرية، وهي أيضًا الأشكال الأدبية التي يجب التركيز عليها في البحث الأدبي[٤]. ولكنه يعتقد أن "الأدب البحري الحقيقي" هو عمل أدبي يأخذ البحار مشهدا رئيسيا أو خلفية للسرد أو القصة، ويستخدم فيه البحر والبحارة والسفن والجزر وعناصر أخرى كعناصر رئيسية في الرواية، وغالبًا يكون فيه البَحار هو الشخصية الرئيسية في السرد، ويستند إلى موضوع السرد البحري والمغامرة البحرية واستكشاف البحار وغرق السفن وما إلى ذلك، أو أنه مكتوب على أساس تجربة البحر، والذي يظهر بوضوح الجماليات الأدبية والعلاقة المعقدة بين البحر والبشر أو بين البشر والطبيعة أو بين البشر والمجتمع[٥]. لكن

عبارة "البحار باعتباره الشخصية الرئيسية في السرد" هنا ليست دقيقة هنا، لأننا سنذكر لاحقًا أن العديد من قصص المغامرات البحرية في الدول العربية قد استخدمت التجار والملاحين والقباطنة شخصيات رئيسية أيضًا في السرد.

وتمتدّ علاقة البحر بالأدب والفن عمومًا إلى فترات بعيدة في التاريخ الإنساني، وتجسّدت كصراعات بين الإنسان والحيوانات المجهولة ظلت على الدوام تحتفظ بأسرارها. فالإغريق قدَّموا صورًا أسطورية أضفت على الأدب صورًا أكثر إخصابًا، نتذكَّر ملحمة الأوديسة لهوميروس حيث صراع أوديسيوس ونبتون. لتتوالى بعدها، وعبر التاريخ الإنساني، روائع من الأدب كان البحر موضوعها الملهم، كما نتذكَّر مجموعة موبسان «في البحر» نشرت ١٨٨٣م والتي يتعرَّض فيها لسفينة غرقت في مدخل ميناء بولون، و«عمال البحر» لفيكتور هيغو(١٨٦٦م)، و«جزيرة الكنوز» للكاتب الأسكتلندي روبير لويس ستيفنسون (١٨٣٣م)، ورواية «الشيخ والبحر» للأميركي إرنست همنغواي الذي حاز جائزة نوبل ١٩٥٤م، وإلخ.

إذا رجعنا إلى العالم العربي، سنجد أن هناك ثلاثة مصطلحات مرتبطة بأدب البحار. الأول هو "الخيال البحري"، في إشارة إلى أدب البحار الخيالي؛ والثاني هو"الأدب البحري"، الذي يشير إلى جميع الأشكال الأدبية المتعلقة بالبحار؛ والثالث هو "أدب البحر"، الذي يشير تحديدًا إلى أدب البحار، لكن بعض العلماء أشاروا أيضًا إلى وجود اختلافات بين البحار والمناطق البحرية المختلفة. لذلك ، يجب استخدام كلمة "البحار" في المصطلح الثالث في صيغة الجمع وتسمى "أدب البحار"[٦]. سنجري دراسة متعمقة لأدب البحار العربي بناءً على تاريخ العرب.

ثالثًا: أدب البحار القديم

أ. الشعر

ومثّل البحر لدى العرب موضوعًا أثيرًا انبثق في الشعر الجاهلي مع طرفة بن العبد وامرئ القيس، وامتدّ إلى أدب الرحلة. فالشعر الجاهلي هو وصف مُزيَّن بالشواهد لحياة الجاهلية،

وأفكارها، حيث عكس العرب من خلاله صورة حقيقية دون تزويق ولا تشويه. وظهر الشعر الجاهلي عند العرب قبل الإسلام بحوالي ١٥٠سنة، إذ وثَّق الشعر الجاهلي حياة العرب قديمًا، وتقاليدهم ومعاركهم ووصف طبيعة حياة البيئة الجاهلية، وما تحتويه من جماد وحيوان إضافة إلى ذكر أسماء فرسانهم وآبار مياههم وغيرها من الأحداث والمعلومات في الجاهلية، كما اشتمل هذا الشعر على العديد من الشعراء ذوي النباهة والبلاغة اللغوية.

والمعلقات من أهم قصائد الشعر الجاهلي وأطولها، وقد سميت بالمعلقات لأنها نفيسة عظيمة القيمة، وليس بسبب تعليقها على الكعبة، وأهم هؤلاء الشعراء هم شعراء المُعلَّقات، من أمثال: امرئ القيس، وعنترة العبسيّ، وزهير بن أبي سُلمى، بالإضافة إلى العديد من دواوين الشعراء. ويرى د. شوقي ضيف أن الشعر الجاهلي هو وثيقة دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملها وأوديتها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزواحفها وطيرها[٧]. فيعتبر الشعر الجاهلي أكثر الأشكال الأدبية والفنية تألقًا للأدب العربي القديم، والذي يعكس بشكل كامل الحياة الاجتماعية للعرب في فترة الجاهلية. على الرغم من أن البدو ليس لديهم عقلانية نظرية معقدة وتفكير منطقي فإنهم بارعون للغاية في التعبير عن مشاعرهم، فهم يستخدمون لغة مكثفة للغاية وإيقاعات معقدة وصارمة للتعبير بوضوح عن المشاعر الداخلية الغنية للشاعر تجاه الحياة القبلية والعالم الخارجي والبيئة الطبيعية[٩].

ومن أشهر أشعار البحر معلقة طرفة، لأنها غنية بلوحات البحر وصوره أكثر من شعر سواه، كما أنه ولد في البحرين، فتفتحت عيناه على عالم البحر والسفن، كما أن مسكنه ومساكن قومه تطل على مياه الخليج. ولذلك نجد العديد من المظاهر البحرية في قصيدته مثل:

عَدَوْلِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنَ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا المَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي

تحتوي هذه المعلقة على ١٢١بيتًا. ويمكننا الاستدلال بذلك على وضع الملاحة وصناعة السفن في البحرين في ذلك الوقت لأن الشاعر وصف الظروف الاجتماعية والطبيعية التي يعرفها جيدًا، فيمكن اعتبار شعره هذا من النماذج المبكرة لأدب البحار، أما

المفضليات فتضمنت طرفا من أدب البحار أيضًا. والمفضليات هي مجموعة شعرية مختارة من عيون الشعر الجاهلي، نسب اسمها إلى المفضل بن محمد الضبي. تضم هذه المجموعة مائة وثلاثين قصيدة منتقاة من أفضل قصائد الشعر الجاهلي. تتيح المفضليات مدى أوسع لظهور أدب البحار بسبب كثرة قصائدها وتعدد شعرائها. فهذا بشامة بن عمرو، يشبه ناقته بالسفينة المملوءة التي أطاع الريح شراعها السريع، فهو يقول بأن امتلاء السفينة أقوم لسيرها، وأن ناقته إذا ولت مسرعة فإنها أشبه بالسفينة الممتلئة السريعة:

وإن أدبرت قلتَ مشحونة أطاع لها الريحُ قلعًا جَفُولا [١٠]

كما وصف المسيب بن علس والمخبل السعدي والمرقش الأكبر وغيرهم من شعراء الجاهلية صور البحار في قصائدهم، تتكرر في قصائد الشعر الجاهلي ودواوينه الكثير من صور البحر وأمواجه وسفنه وظواهره وطرقه الملاحية على النحو الذي سبق ذكره. غير أنها تشكل الملامح الأولى لأدب البحار عند العرب، وتلك الملامح التي أخذت في التعمق مع التقدم العربي في البحار والمحيطات. فتقدمت تلك الصور البحرية الواقعية من الشعر الجاهلي إلى قصص التجار العرب مع نمو حركة التجارة العربية بعد ظهور الإسلام. توفر الموتيفات الأولية المتنوعة والصور البحرية التي تظهر في القصائد مراجع مهمة لإنشاء أعمال أدبية لاحقة، وهي شكل أدبي فني يتسم بروح البحار وجماليات البحار في بدايات الفترة العربية، والتي يمكن أن تعكس العلاقة بين الإنسان والبحر. يعبر أسلوب القصائد الجاهلية في الغالب عن وعي العرب بالحرية والبطولة والشرود، والذي لا يبرز فقط حنين العرب للتغييرات غير الدائمة في الأطلال، بل يسلط الضوء أيضًا على الصورة المزدوجة للعرب عن "بحر الرمل" و"البحر"، ويصور آراء العرب في الحب والعشيرة والخير والشر والبؤس في عصر الجاهلية وبداية الإسلام، ويعكس الوحدة الديالكتيكية للغزو والتعايش بين العرب والبحر.

ب. قصص التجار العرب والأدب الملاحي

وفقًا لسجلات الأدبيات، كان العرب يميلون إلى التجارة البحرية المتكررة على طول ساحل البحر الأحمر حوالي عام ٦٠ بعد الميلاد، وتزاوجوا مع الأجناس الأجنبية المحيطة[١١]. وبعد ظهور الإسلام ، امتدت رحلات العرب إلى الساحل الجنوبي الشرقي للصين شرقًا وطنجة غربًا. عززت التجارة البحرية بين الدول العربية ودول الشرق الأقصى وشمال إفريقيا بشكل كبير التبادلات الاقتصادية والتكنولوجية والثقافية بين العرب وشعوب آسيا وأفريقيا. ومن القرن السابع إلى القرن الثامن الميلادي، تم توحيد الكتابة العربية، وارتفعت تقنية صناعة الورق، ومع ازدهار التجارة البحرية، ظهرت قصص التجار العرب المتميزة بالواقعية وخصائص الأساطير. وتم إبداع هذه القصص في الأصل من قبل رجال الأعمال البحريين ورواة القصص من مناطق الخليج مثل عمان وسيراف والبحرين وتم حفظها في شكل شفهي في بدايتها، ثم ظهر تدريجيًا عددٌ كبيرٌ من الحكايات الشعبية والأساطير، مما ساهم في وضع الأساس الهام لتطوير أدب البحار العربي اللاحق.

بعد القرن العاشر، دخلت الجزيرة العربية عصرها البحري، ونضجت طرق التجارة البحرية بين الشرق والغرب، ودخل تطوير طريق الحرير البحري على وجه الخصوص ذروته. يسجل كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر» للمسعودي عددًا كبيرًا من القصص البحرية وأخبار المناطق البحرية والمعارف المحلية والأساطير التي تحدث عنها مجهولون حينذاك. كما ورد في الكتاب أن أبو زيد حسن السيرافي لم يكن تاجرًا ولا ملاحًا، بل كان كاتبًا أحب جمع القصص، خاصة بعد لقاء سليمان وابن وهب، فالقصص البحرية التي سجلها الملاحان السابقان لها غاية الأهمية، والتي قد تكون أقدم نموذج أولي معروف للأدب البحري في منطقة الخليج. تم اكتشاف مخطوطة السيرافي بالصدفة من قبل يوسابيوس رينو عام ١٨١٨م، وتم ترجمتها ونشرها في باريس في ذلك العام تحت عنوان "أخبار قديمة من الهند والصين، أوردها اثنان من الرحالة المسلمين سافرا إلى هناك في القرن التاسع الميلادي"[١٢]. هذا الكتاب عبارة عن قصة بأسلوب سرد مليء بالواقعية، ويصور عددًا كبيرًا من الظواهر

البحرية، والمخلوقات البحرية، والعلاقة بين البشر والبحر، بالإضافة إلى بعض الأساطير الخيالية.

أرست قصص الرحلات العربية الأساس لقصة سندباد. وكانت قصة السندباد في الأصل عملاً عربيًا قائمًا بذاته، وتم دمجه لاحقًا في مجموعة الحكايات الشعبية العربية «ألف ليلة وليلة» إلى جانب عدد من القصص البحرية الأخرى. لذلك، يعتبر «ألف ليلة وليلة» أكثر الأعمال تمثيلا للأدب البحري العربي الكلاسيكي، ويعتبر أيضًا عملًا تمثيليًا للأدب الملاحي العربي. على الرغم من أن «ألف ليلة وليلة» تأتي من ثلاثة مصادر: أصول هندية وترجمات فارسية وحكايات فولكلورية عربية، إلا أن محتواها نفسه يحتوي على العديد من القصص الأخرى غير البحرية، ولكن نظرًا لأن العديد من حكاياتها الشعبية العربية التي أضيفت لاحقًا مستمدة من السجلات والرحلات البحرية، فيمكن اعتبارها عملا تمثيليا لأدب البحار العربي الكلاسيكي بشكل عام، ولا يمكن الاستهانة بقيمتها لأدب البحار، وقد لعبت دورًا مهمًا في تعزيز تطور أدب البحار العالمي.

لم تحظ «ألف ليلة وليلة» بالاهتمام الكافي في الدول العربية في البداية. ولكن بعد نشر الكتاب في فرنسا في القرن الثامن عشر، حظي بتقدير كبير من قبل العديد من القراء من الملاحين الأوروبيين، والتجار البحريين، والمستشرقين، والكتاب إلخ. وقد وفر العدد الكبير من الرموز في نصه للكتاب الأوروبيين كثيرًا من الإلهام الإبداعي، ومواد مثل الأعاصير وحطام السفن والجزر الصحراوية وحضارات ما قبل التاريخ وغير ذلك. من وجهة نظر الأعمال، وكان لـ«ألف ليلة وليلة» تأثيرات مختلفة على «حكايات أندرسن الخيالية» لهانس كريستيان أندرسن، و«روبنسون كروزو» لدانيال ديفو، و«رحلات جاليفر» لجوناثان سويفت، و«رسائل فارسية» لمونتسكيو، و«كانديد» لفولتير، و«سفينة أشباح» لفيلهلم هاوف، وعلى أعمال جول فيرن وهربرت جورج ويلز وآخرين[١٣]. وحتى هيرمان ميلفيل تأثر بعمق وأبدع تحفة الأدب البحري «موبي ديك». في ظل دعوة العلماء المثقفين مثل سهير القلماوي وطه حسين من جامعة القاهرة ، بدأت الدول العربية في إيلاء أهمية للقيمة النصية لـ«ألف ليلة

وليلة». وقامت أطروحة الدكتوراه للقلماوي بمناقشات معمقة حول قيمة «ألف ليلة وليلة» وأطلقت طفرة بحثية في الدول العربية. يعتقد حسين فوزي أن قصة السندباد ليست فقط أهم قصة بحرية في الأدب العربي ، بل هي أيضًا أهم الأعمال الأدبية البحرية في الأدب العالمي.[١٤]

بشكل عام، بما يتوافق مع الأدبيات البحرية الأوروبية، فإن العناصر الثلاثة للقصص البحرية العربية هي البحر والسفينة والبحّار، والتي تدور غالبًا حول الموضوعات مثل الكفاح ضد الطبيعة، والخبرة الجسدية والعقلية، والتضامن والتعاون، واستكشاف المعرفة الجديدة، وسعة الحيلة، التوق إلى الحرية والوحدة العاطفية وما إلى ذلك، مما يوفر الكثير من المواد لإنشاء أدب البحار الأوروبي في وقت لاحق وإنشاء الروايات البحرية العربية.

ج. أدب المرشدات البحرية

ظهر أدب البحار العربي المبكر في شكل شعر بحري وقصة بحرية، وعلى هذا الأساس، ظهر أدب المرشدات البحرية. فإن أدب المرشدات البحرية هو نوع من النثر الإرشادي مع وظيفة إرشادية، ويشمل العلوم أو الأدب أو الأدب العلمي وجغرافيا الملاحة وإلخ. في القرن الخامس عشر، ازدهرت صناعة الملاحة البحرية العربية، وأبدع الملاحون من جميع أنحاء الخليج هذا الأدب الفريد، وكان رمز الصعود هو الشاعر البحري ابن ماجد، أحد أشهر الملاحين في عصر الاستكشاف البحري، فالبرتغالي فاسكو دا غاما بتوجيه منه نجح أسطوله في عبور المحيط الهندي.

ويعتقد كراتشكوفسكي أن أدب المرشدات تطور فرعًا من الأدب الجغرافي العربي. وعلى الرغم من ارتباطه العميق بقصص التجار العرب، فقد تطور تدريجيًا من شكل أدبي خالص إلى فئة فرعية للأدب يمزج بين أدب البحار والعلوم البحرية. ومن أدب المرشدات «الراهنامج» بمعنى "خارطة الطريق" في اللغة الفارسية. الراهنامج ليس عملاً واحدًا، بل مصطلح عام لسلسلة من الأعمال.

لقد اكتشفت أعمال ابن ماجد وسليمان المهري من قبل المستشرق الفرنسي غابرييل فيران وأعيد نشرها في أوائل القرن العشرين[١٥]، بينما فقدت باقي المخططات البحرية. ويعتقد كراتشكوفسكي أن هذه المؤلفات "تحتل مكانة مرموقة في تاريخ الحضارة البشرية جمعاء" و"تمثل أهم مصدر للمعلومات الجغرافية التي كانت تحت تصرف الصور الوسطى المتأخرة عن البحار الجنوبية"[١٦].

وإن أعمال المرشدات البحرية باعتبارها فرعًا من الأدبيات الجغرافية مع تركيز متساوٍ على السرد والوصف بارزة في الأدب، فهي ليست خيالية ولا مبالغًا فيها عند وصف المعلومات العملية، ولكنها رائعة عند وصف القصص البحرية وأساطير وحوش البحر هيكليًّا، كما تستخدم تقنيات أدبية وفنية مختلفة لتعكس المعرفة البحرية والأحداث البحرية والروح البحرية في شكل شعر أو نثر شعري لتكون زهرة رائعة في أدب البحار العربي القديم.

د. أدب الرحلات البحرية

أدب الرحلات البحرية نوع من النثر يتميز بالوظيفة العلمية وليس العملية، ولقد وصل إلينا الكثير من أعمال الرحلة مثل« الرحلة الحجازية» لشكيب أرسلان وإلخ. ومن أشهر أولئك الرحالة المسعودي، وهو علي ابن الحسين ابن علي أبو الحسين المسعودي، من ذرية الصحابي عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه. أديب ورحال ومؤرخ وجغرافي، قام برحلاته في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي. وصف بأنه "أكثر الكتاب الجغرافيين أصالة في القرن العاشر"، و"هيرودت العرب" و"أنموذج المراسلين الصحفيين المعاصرين الذين يذرعون الأرض" بسبب من أسلوبه الأدبي والقصصي، ولأن في أسلوبه "قرابة ورحمًا مع أسلوب الصحافة الحديثة"[١٧]. وكتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» هي تحفة أكاديمية ذات سمات جغرافية مميزة، واستخدم الكثير من التقنيات الأدبية وقليل من الاستشهادات في سردها، لكن هذا لا ينفي مصداقية معرفتها الجغرافية، لأن الكاتب نفسه عالم جغرافي واسع المعرفة. هناك العديد من الفصول في «مروج الذهب ومعادن الجوهر» التي تقدم وتصف البحار والعالم البحري من جوانب الأدب والملاحة والجغرافيا والتاريخ وما إلى ذلك. وقد

رفع الجودة الأدبية للرحلات إلى مستوى أعلى، ودمج المعرفة الموسوعية في الأدب والأساطير، وإنه وثيقة موسوعة عالمية ثمينة وعمل مهم لأدب البحار العربي القديم.

أما الرحالة الآخر فهو ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، الأنموذج العظيم للرحالة العربي. ووصفه محمد بن جزي، كاتب مؤلفه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، وبأنه "الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق، جوال الأرض، ومخترق الأقاليم بالطول والعرض" وقال عنه أيضا "إن هذا الشيخ هو رحال العصر، ومن قال، رحال هذه الملة، لم يبعد..." وعده كراتشوكوفسكي " آخر جغرافي عالمي من الناحية العملية، أي أنه لم يكن نقالة اعتمد على كتب الغير بل كان رحالة انتظم محيط أسفاره عددًا كبيرًا من الأقطار. وقد جاوز تجواله مقدار مائة وخمسة وسبعين ألف ميل، فهو بهذا يعد منافسًا خطيرًا لمعاصره الأكبر منه سنا ماركوبولو البندقي"[١٨]. جاء الجزء الرئيسي من رحلات ابن بطوطة على طريق البحر من الهند إلى الصين، وقد وصف في الكتاب أحاسيسه ومعرفته بالبحر على نطاق واسع، وذكر العالم تحت الماء والسفن والجزر والصيادين وعددا كبيرا من المواد البحرية مثل الكائنات البحرية والأساطير والوحوش، وهي تحفة من الجغرافيا والتاريخ والعرق والدين والفولكلور في العصور الوسطى، ولا تزال مادة مهمة ذات قيمة أكاديمية وأدبية لدراسة العلاقة بين الصين والدول العربية في أسرتي سونغ ويوان.

هناك أديب مشهور في أدب الرحلات وهو حسين فوزي، هو عالم وفنان من جيل الرواد الموسوعيين الذين أرسوا أسس كثير من العلوم والفنون بعد استيعابهم لحضارة العرب. فهو أحد رواد المدرسة الحديثة، التي ضمت أحمد خيري سعيد ومحمود طاهر لاشين ويحي حقي وإبراهيم المصري. وبعد تخرجه في كلية الطب المصرية عام ١٩٢٣م، التحق بعد عامين ببعثة المحيط الهندي من الإسكندرية بمصر إلى فرنسا كطبيب الفريق. ومنذ عام ١٩٣٨، نشر حسين فوزي سلسلة من أعمال الرحلات البحرية حول الحضارات الشرقية والغربية تسمى "سلسلة سندباد"، بما في ذلك «سندباد عصري»، و«سندباد مصري»،

و«سندباد إلى الغرب»، و«حديث السندباد القديم»، و«سندباد في رحلة الحياة»، و«سندباد في سيارة»، و«سندباد عصري يعود إلى الهند» إلخ.

«حديث السندباد القديم» هو قصص خيالية عن الزمان والمكان. يقوم المؤلف بدمج وتصنيف الجغرافيين والملاحين والمسافرين في الكتاب العربي القديم محاولًا لإرشاد القراء إلى البحار وقصص البحار والأساطير البحرية. يعتقد حسين فوزي أن المحيط الهندي هو مصدر الجغرافيا العربية والثقافة البحرية من القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر ، وهو جزء مهم من الأمة والثقافة العربية. يخلط المؤلف عمدًا المعرفة العلمية والإنسانية في السرد دون إظهار أي أثر. ففي هذا العمل، حسين فوزي ليس فقط راوي قصص، ولكن أيضًا محلل محتوى. فقد استخدم منظور الملاح الحديث لمساعدة القراء بعقلانية وديالكتيكية على إعادة فهم العلاقة بين الإنسان والطبيعة، ولهذا العمل اتجاهات بيئية في الإبداع الأدبي الإيكولوجي. بالإضافة إلى ذلك، هناك العديد من كتاب الرحلات المشهورين مثل فتحي غانم وصالح مرسي، والذين لم تتم مناقشة أعمالهم هنا بسبب ضيق المساحة.

رابعاً. أدب البحار العربي الحديث

على الرغم من ظهور الرواية العربية الحديثة في وقت متأخر نسبيًا، فإن الرواية – باعتبارها النوع المهيمن في الأدب الحديث – يمكن أن تعكس بشكل أفضل الاتجاهات المتزايدة للعالم الجديد. لذلك، فإن دراسة الروايات بالنسبة لأدب البحار العربي لها أهمية كبيرة.

لقد طورت دول الخليج صيد الأسماك والملاحة والتجارة البحرية منذ العصور القديمة، وظهرت في وقت سابق الآداب الشعبية مثل الأساطير البحرية والقصص البحرية والقصائد السردية البحرية، فكانت دول الخليج مهد أدب البحار العربي. كما أن الروايات الحديثة لدول الخليج متأثرة بعمق بأدب البحار القديم، لكنها تتجاهل ثراء الموضوعات البحرية، وفي السنوات الأخيرة، بدأ كتاب أدب البحار في الاهتمام بإعادة إنشاء الروايات البحرية وحققوا اختراقات في الشخصيات وهيكل الحبكة والوصف النفسي. فهناك كثير من الروايات البحرية بما في ذلك: «الشراع المقدس» لعبد العزيز محمود، و«سلطنة هرمز» لريم

الكمالي، و«النواخذة» لفوزية شويش، و«النجدي» لطالب الرفاعي، و«الجوهرة والقبطان» لزوينة الكلباني وغيرها.

شكلت منطقة الشام ومصر اندماجًا للثقافات الشرقية والغربية منذ العصور القديمة. وعلى الرغم من أنهما لم يتم استعمارهما ثقافيًا منذ العصور الحديثة، إلا أن الشرارات الناتجة عن الاحتكاكات الثقافية تجعل وظيفة التصوير البحري في أدب البحار في هذا المجال أكثر تركيزًا على الأزمنة والخيال، فالكتاب يجمعون بين السرد والشعر الغنائي والعقلانية للإبداع الأدبي. ف"البحر" قد يمثل الحيوية والحنين إلى الماضي أوتحديثًا مستوردًا أوعصرًا جديدًا من الانفتاح والتنوع، أو تعبيرًا عن الذات المتخيلة، وما إلى ذلك.

وإذا كان "هرمان ملفيل" هو أول كاتب رواية بحرية في العالم، فإن الروائي السوري حنا مينه هو أول كاتب رواية بحرية في تاريخ الأدب العربي الحديث. وقد كتب «الشراع والعاصفة» و«حكاية البحار» والعديد من الروايات البحرية الأخرى. فبطل الرواية «الشراع والعاصفة» الطروشي ساعد الميليشيات البرية في كفاحها للدفاع عن وطنها وحقوقها البحرية بنقل السلاح عن طريق البحر. والبحر هنا هو القوت العاطفي والقوت الروحي للمؤلف، وكان البحر عالمًا مليئا بالذكورة والبطولة. بالإضافة إلى ذلك، هناك «الريحانيات» للكاتب اللبناني أمين الريحاني ، و«زهرة العمر» للكاتب المصري توفيق الحكيم، و« الأفعى والبحر » للروائي المغربي محمد زفزاف، إلخ.

بشكل عام، تُظهر الروايات البحرية العربية اتجاهاتٍ تنموية متعددة الأوجه. على سبيل المثال، اتجاه التنمية نحو الأدب البيئي، وهذا النوع من الروايات هو اعتراف وانعكاس للإيكولوجيا البحرية والتفكير الفلسفي والمراجعة الجمالية للعلاقة بين البحر والبشر، ويقارن الجماليات البحرية بالطبيعة من أجل نقد الواقع ومقاومة الاغتراب. وهو من ناحية يستلهم أدب البحار العربي التقليدي، ومن ناحية أخرى، يمتص الروح البشرية من الأدبيات العالمية، ويعكس نظرة العرب البيئية البحرية ومشاعرهم البحرية.

خامساً. الخاتمة

أدب البحار هو موضوع فرعي مهم في الدراسات الأدبية اليوم، لذلك فإن دراسة أدب البحار العربي في تاريخ الأدب العالمي لها أهمية تاريخية بعيدة المدى وقيمة أكاديمية مهمة. ستقوم بتوسيع المجالات الأدبية لبحوث الأدب العربي، وإثراء دلالة البحث الأدبي، واستكشاف الثقافة العربية وتعزيزها، وترسيخ المكانة المناسبة للحضارة العربية في تاريخ الثقافة العالمية. وإن الدراسة المنهجية لظاهرة أدب البحار العربي وقوانين التنمية لآلاف السنين ستجعل الناس أكثر وعيًا بسلسلة من القضايا مثل السيادة البحرية والموارد البحرية والتجارة البحرية والنقل البحري وأمن الدفاع الساحلي، ويدرك القراء الجمال الطبيعي والجمال الاجتماعي والجمال الفلسفي والجمال الفني الموجود في المحيط، ومن ثم يفهم بعمق العلاقة بين البشر والبحر. لذلك ، فإن البحر هو الموضوع الأبدي للأدب والفن، وأدب البحار سيكون نوعًا أدبيًا يعكس حياة الإنسان البحرية، وهو الأمر الذي يحتاج إلى مزيد من الدراسة.

المراجع والهوامش:

١. محمود فهمي حجازي، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللّغات السامية، دار غريب القاهرة، ١٩٩٦م، ص٢١٩.
٢. رينيه ويلك، أوستن وارين. النظرية الأدبية، دار نشر التعليم في جيانغسو، ٢٠٠٥م، ص٢٧٥.
٣. يشير مصطلح "أدب النوع" إلى شكل من أشكال الإبداع الأدبي بخصائص واضحة معينة وجمهوره ثابت نسبيًا. وعادة ما يستخدم لوصف الظواهر في عالم الخيال على عكس الأدب الجاد. ببساطة، أدب النوع هو عمل يسهل تصنيفه، وله إجراءات وأنماط معينة في النوع، والتي يمكن أن تلبي توقعات معظم القراء. تؤكد روايات النوع أن الروايات يجب أن تكون مناسبة للقراءة من قبل عامة الناس وتسعى إلى الجمع بين الأدب الشعبي والأدب النقي، بحيث يمكن أن تصبح الكتب الأدبية أيضًا من أكثر الكتب مبيعًا.
٤. دوان بو. مفهوم "أدب البحار" وخصائصه الجمالية، مجلة جامعة نينغبو (طبعة العلوم الإنسانية)، ٢٠١٨م، العدد ٣١-٠٤، ص ١١٣.
٥. المصدر السابق.
٦. واسيني الأعرج ، أدب البحار في بلدان الخليج العربي ، مقالة من شبكة القدس العربي ، ٨ مارس ٢٠١٧ م.
٧. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، ٢٠١٢م، ص ٢١٩.
٨. جمال زكريا قاسم، دور العرب في كشف أفريقيا، مجلة عالم الفكر، المجلد الأول، العدد الرابع، ص١٨.
٩. طه حسين، في الأدب الجاهلي، دار المعارف، ٢٠١٨م، ص ٢٢٦.
١٠. المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي، المفضليات، دار المعارف، ص ٥٨.
١١. جمال زكريا قاسم، دور العرب في أفريقيا كشف، مجلة عالم الفكر، المجلد الأول، العدد الرابع، ص٢١.
١٢. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ج١، ١٩٥٧م، ص ١٤١.
١٣. جمال شحيد، ألف ليلة وليلة في الأدب الفرنسي حتى الثورة الفرنسية ، مجلة المعرفة، العدد ١٩١-١٩٢، ١ فبراير ١٩٧٨م، ص ٢٥٣-٢٥٩.
١٤. حسين فوزي، حديث السندباد القديم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٣م، ص ٣٥٦-٣٥٧.
١٥. نور عبد العليم، ابن ماجد الملاح، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٦م، ص ٥.
١٦. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ج٢، ١٩٥٧م، ص٥٧١-٥٧٢.
١٧. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ج١، ١٩٥٧م، ص ١٧٧-١٧٨.
١٨. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ج١، ١٩٥٧م، ص ٤٢١.